القصة في العالم

بقلم علي شلش

الى اين تسير الرواية المعاصرة ؟

في أواخر الصيف الماضي شهدت مدينة لينينجراد – لاول مرة في تاريخها – مؤتمرا لادباء اوربا وكتابها ، ولاول مرة ايضا يلتقي أدباء الاتحاد السوفيتي بزملائهم من أدباء وكتاب البلدان الاوربية المختلفة فيما عدا أسبانيا والبرتغال اللتين منعتا أدباءهما من حضور المؤتمر .

واتخذت جلسات المؤتمر – التي دامت بضعة ايام – شكل المائدة المستديرة ، حيث تدارس الادباء والكتاب عددا من القضايا الادبية الهامة كان على رأسها قضية « الرواية المعاصرة اتجاهاتها ومصيرها » .

وقد شهد المؤتمر عدد كبير من الكتاب والشعراء والنقاد والمفكرين والناشرين ، نذكر من بينهم انجوس ويلسون ، وليام جولدنج ، برنارد وول (انجلترا) ماتيلي واريف (بلغاريا) تيبور ديري وجابور تولناي (المجر) هانز كوخ (المانيا الديموقراطية) الياس فينوس (اليونان) كات أوبريين (ايرلندا) جوزيبي أونجاريتي ، جيانكارلو فيجوريللي ، جويدو بيوفيني ، ايرو مانشي (ايطاليا) ريزار ماتوزوسكي (بولندا) هانز ورنر ريختر (المانيا الاتحادية) كاي لايتينين (فنلندا) سارتر ، الان روب جرييه ، ناتالي ساروت برنار بنجو (فرنسا) ايفان لاليتش (يوغوسلافيا) شولوخوف اهرنبورج ، سيمونوف ، كونستانتين فيدين (الاتحاد السوفيتي) . وغيرهم .

وقد شغلت المؤتمرين قضية الرواية المعاصرة ، فأولوها القسط الاكبر من بحثهم ونقاشهم ، ودرسوا « أزمتها الراهنة » ، و « الاخطار التي تهددها » كما حللوا بواعث هذه الازمة وأوجهها . غير أن الروائيين السوفييت حاولوا أن يعرضوا القضية بشكل آخر فرفضوا – بداءة – الزعم بأن الرواية المعاصرة تحتضر ، ودللوا على ازدهار هذا الجنس الادبي المثمر ذي التراث العريق ، بل انهم تنبأوا للرواية بمستقبل زاهر خصب . ومن ثم رفضوا وضع القضية على مستوى « الازمة » ، واضافوا ان الازمة ليست سوى حالة عامة تخص الفن الغربي وحده بشكل عام ، أو الفنان الغربي بمعنى أدق ، نتيجة لما يعانيه من تناقض ويأس ، وخوف من الفناء النووي ، وشك في القيم الانسانية النبيلة . فهم – أي السوفييت – يعتقدون أن شكل الحياة ومضمونها في حالة تغير دائم ، وان الانسان نفسه – وعقليته – لا يملك ان ينعزل عن هذا

التغير المستمر . وبالتالي فان الفنان بشكل عام ، والروائي بشكل خاص ، مطالب بان يلاحظ هذا التغير ، حتى يتحمل مسئولياته والتزاماته – يقول الروائي كونستانتين فيدين في كلمته بالمؤتمر

« ان مادة الواقع في حالة جريان دائم . وبالتالي فانه من الطبيعي أن تتجدد هذه المادة في الرواية من خلال التغيرات ، فالشكل ليس لباسا جاهزا، وانما هو مستمد من المادة ذاتها التي ينتقيها الروائي ويختارها »

وتحدث الروائي الايطالي أونجاريتي فكان حديثه قريبا من الفهم السوفييتي للقصة ، فقد ذكر ان عالمنا يتغير بسرعة، وان كل يوم يأتي بجديد في الشوارع والمدن ووسائل النقل ، بل وفي أفكارنا عن الفضاء ، وانما نطوف بالعالم ونحن جلوس في مقاعدنا لاسرحها ، بل ونسافر الى ماوراء حدود هذا العالم . وهذا كله من شأنه ان يحث الفنان دائما وان يدفعه الى البحث عن وسائل جديدة للتعبير . ذلك لان الفن – في رأيه – في صراع دائم مع العالم من أجل ان يتمكن من خلقه وتشكيله ، والوصول الى حقيقة جوهر الانسان .

غير ان الرواية الواقعية التقليدية لم تسلم من الهجوم والاستنكار . فقد استبعدها البعض من كتاب فرنسا وايطاليا بصفة خاصة ، وقال مهاجموها انها شاخت وجمدت ، وان هذه الاشكال تفرط في الوصف والتفصيل . وتعجز عن أن تعكس واقع الحياة المعاصرة التي تتغير بسرعة وتتطلب التركيز والاقتصاد في حديثه عن جويس وكافكا وبروست في الوصف والتفصيل . وقال الروائي الفرنسي الشاب روجو كالوا ان «ازمة الرواية» تظهر جلية في محاولات الكتاب المعاصرين وسعيهم وراء مسالك جديدة في الفن ، لكنه أضاف ان هذه المساعي غالبا ماتتسم بطابع « اكروباتي »

اما الروائي الايطالي جويدو بيوفيني فقد احتد في الهجوم على الرواية التقليدية . فقال انه لا يوجد في الدول العربية كاتب واحد يسلم بروايات القرن الماضي ويحتذيها . لكنه طالب الكتاب بدراسة تراث ديستويفسكي ومارسيل بروست وجيمس جويس بدعوى انهم انفردوا بالكشف عن عالم الانسان الداخلي ، رغم تعرفهم وانهيارهم . وعلق زميله فجورلي عند حديثه عن جويس وكافكا وبروست بقوله « نعم ، انهم آباؤنا ، لكن ألم يصبحوا الآن في عداد أجدادنا ؟ » . وعلى هذا النحو سار معظم الكتاب الجدد الذين ظهروا بعد الحرب الثانية في فرنسا وايطاليا ، وابتدعوا مدارس فنية جديدة في الرواية اهمها مدرستا « الواقعية الجديدة » في ايطاليا ، و « الرواية الجديدة » في فرنسا ، فهم لا يغلون الشدة على أيدي كتاب القرن الماضي، كما يرفضون ما يكتبه زملاؤهم الروس في ظل واقعيتهم الاشتراكية – ويعتبرون أن جيل الروائيين الاوروبيين الذي ظهر في هذا القرن وحاول ان يحلل دخائل النفس البشرية – مثل كافكا وجويس وبروست – قد أدى دوره وان احتذاء محاولاته ضرب من العبث ، وان مشاكل هذا العصر لا تحلها الا أشكال جديدة كل الجدة تتناسب مع ضخامتها وتنوعها وسرعتها . ومن ثمة فهم لا

يكون في التجريب وان جاء بشكل « اكروباتي » كما اشار واحد منهم .

وقد اشار الروائي الايطالي جاكومو دبيدتي الى تجارب زملائه في الرواية ، فذكر ان ثمة خطرين يواجهان اتباع الواقعية الجديدة في ايطاليا ، اولهما يمثله الاتجاه الذاتي الذي اغرق فيه الكتاب انفسهم ثانيهما يمثله الاتجاه الطبيعي الذي ارتاده زولا من قبل . وهما اتجاهان انحدرت اليهما الواقعية الجديدة بفعل الازمات الداخلية العميقة التي يعانيها الكتاب وسببت لهم انعدام الراحة النفسية . وقد ادى ذلك الى ظهور عدة روايات غير ناضجة ، تفتقر الى الشكل الروائي المقبول ، وتقترب من شكل « المفكرات » التي يحتفظ فيها المرء بملاحظاته وافكاره اليومية . كما اشار دبيدتي الى ان الناقد الايطالي لا يجد مبررا للتعاطف مع مثل هذه الاعمال الا لانها تبيح للمرء مواجهة « اللا متوقع واللا معروف مما هو موجود في حياتنا اليوم » .

اما انصار مدرسة الرواية الجديدة في فرنسا فقد حملوا حملة شعواء على الرواية الكلاسيكية والرواية الواقعية روب جرييه انه يسعى ان يبطل العمل الاشتراكية . فقال مؤسس المدرسة الآن بالرواية القديمة رغيم القرن التاسع عشر ، وان يسعى الكتاب الى اكتشاف وسائل جديدة في التعبير لتحل محل تركة القرن الماضي . اما الرواية الواقعية الاشتراكية فهي — في رأيه — لا تقنع ولا تشبع ؛ لأنها تحتمل احتمالا أساسيا بقيم اخلاقية أصبحت دائمة بين الناس ، يعرفها القاصي والداني . ثم تبعته زميلته ناتالي ساروت فصدقت على رأيه ، واضافت ان الكاتب مطالب بان يتحول عن ذلك الواقع الظاهر المرئي الذي عرفه الناس ودرسوه بالفعل ، حتى يحقق « واقعا جديدا » من صنع يديه ، ويكشف ما كان محجوبا ، وانه مطالب بان يركز انتباهه على العالم الداخلي الغريب بالنسبة له . ومع ذلك فقد اعترف الروائيون الفرنسيون الجدد — وشاركهم ساروت هذا الاعتراف — بان الكتاب الغربيين لا يصلون الا لعدد ضئيل من القراء على عكس زملائهم في البلدان الاشتراكية مما يجعلهم اقل تعرضا لتبعات وملائم الاشتراكيين . وعلق الناقد السوفيتي سوريين جاورجيان على ذلك بقوله ان الروايات لا تخلق لذاتها . وانما هي تكتب لتقرأ والرواية التي لا قراء لها تكون في حكم العدم . ثم ذكر ان مواطنيه من الروائيين لا تشغلهم مشكلة القارئ بقدر ما تشغلهم مشكلة تجويد انتاجهم والارتفاع بمستواه . وانتقل الى مقالة ساروت فقال ان الحقيقة لا يمكن ان تتحقق في الفن بالاعراض عن الواقع ولا بالتسليم الآلي بجريان الحياة او الوعي ، كما لا يمكن ان تخرج حقيقة فنية عن طريق الخيال الخلاق والتحليق والرموز الا اذا ارتبط الكاتب بحياة الناس وحقق اختيارا هادفا للمادة الخام ، اي حين يعرف بوضوح ما يجاهد من اجله .

وهكذا اثارت « الرواية الجديدة » معركة بين الشرق والغرب في قارة واحدة . ورغم ان انصارها يزعمون انهم يظهرون للقارئ ما يرونه بالدقة ، بلا زيادة ولا نقصان ، وانها الشكل الوحيد الذي يتيح لهم التعبير عن عالم اليوم ، الا ان انصار الواقعية الاشتراكية لم

يرحبوا بها ورفضوا فكرة حرية الخيال والتصور التى اثارها « الروائيون الجدد » بدعوى أن الخيال لا يثير فى النفس دهشة غريبة ، وانه محدود دائما ولا يملك ما يملكه الواقع الحقيقى من ثراء وتنوع هائل .

على ان نجاح هذا المؤتمر لم يقس بعمق ابحاثه ، فانما يقاس أيضا بما حققه من صلة بين كتاب الغرب والشرق، على اختلاف انظمتهم ومذاهبهم ، وما يمكن أن تؤدى اليه المناقشات الودية التى تبودلت من الراء للرواية المعاصرة والزامها بمسئولية استلهام الافكار الانسانية الايجابية ، فالرواية هى مرآة الانسان المعاصر وسبيل الى فهم العالم الذى يعيش فيه ولقد علق سارتر على المؤتمر بقوله :

« لقد تذكرنا مرة أخرى كيف أن مشاكل الثقافة وحياة الانسان والمجتمع انما هى جميعا متصلة لا تتجزأ »

فى سطور :

● **أجرت صحيفة الصنداى تايمز تحقيقا أدبيا حول ابرز الكتب التى ظهرت فى العام المنصرم ، اشترك فيه سبعة من النقاد والمحررين الادبيين المعروفين فى اربع دول هى : الولايات المتحدة ، فرنسا المانيا ، ايطاليا . ونقتطف هنا ما جاء بهذا التحقيق خاصا بالرواية والقصة ففى الولايات المتحدة كانت رواية ١٩٦٢ هى « الشلة » للكاتبة المعروفة مارى مكارثى ، وفى فرنسا ظفرت باللقب روايتان هما : « الدعوى الشفوية » للكاتب لى كلوزيو ، « وثمار الذهب » للكاتبة ناتالى ساروت . وفى المانيا كانت رواية العام هى « اليد الناعمة » للكاتب جنتر جراس . اما فى ايطاليا فقد فازت رواية « لا شىء يمضى » للكاتب توماسولا ندولفى .**

ومن الطريف ان الصحيفة ذاتها فى انجلترا عام ١٩٦٢ على عشرين كاتبا طرحت قضية أحسن الكتب التى ظهرت من كتابها ، لكنهم اجمعوا على ان نصيب الاسد من الجودة والشهرة كان للاعمال غير القصصية وخاصة الدراسات الادبية والتاريخية .

● اطلق الكثيرون على عام ١٩٦٢ لقب « عام الاحزان » أو « العام المر » فقد خسر العالم خلاله عددا من عظمائه فى السياسة والدين والادب . وفى القصة خسر العالم الروائى الفرنسى المتعدد الجوانب جان كوكتو ، والروائى الانجليزى الدوس هكسلى وزميله س. س. لويس الذى اشتهر بقصته « خارج الكوكب الساكن » وهى قصة علمية تصور الحياة فى المريخ .

● **وليام جير هاردى روائى انجليزى طواه النسيان ، وانزوى بعيدا عن الاضواء لا يجد من يأخذ بيده من النقاد طيلة العشرين عاما الماضية ، رغم انه يعد من أظرف الكتاب الانجليز فى هذا القرن ، واكثرهم تميزا بخفة الدم . واخيرا نقب عنه فيليب توينبى معقب جريدة الاوبزرفر ، والتقى به ، ثم كتب عنه مقالا طويلا بعنوان : « موهبة منسية تعود الى الظهور » ، حلل فيه أعماله واسباب انقطاعه عن الكتابة منذ عام ١٩٤٠ ، كما لخص افكاره وآراءه فى الرواية والادب ، ومنها أن الكاتب انسان — وليس آلة — ينبغى ان يكتب من وحى تجربته الخاصة فى الحياة ، وان الروائى الممتاز يستحق لقب الشاعر ، وأن**

وظيفة الشاعر – وبالتالى الروائى – هى أن ينظر فى الحيـــاة اليومية وان يتاملها كى يغوص الى عالم الاحلام ثم يعود الى عالم الواقع محملا بثمار الفن، كما أن موضوعات القصص مطروحة فى الطريق لكل من يشـــاء ، واخيرا فان وظيفة الشاعر فى النهاية هى أن يكشف عما فى الحياة من جمال .

● علق النـــاقد الانجليزى جون ويتمان على زيارته الاخيرة لباريس بان مدينة النور لم تتغير منذ خمســة اعوام الا فى أمرين أساسيين : اولهما أن مكانة الحى اللاتينى قد ذابت بسرعة شديدة وثانيهما أن مدرسة «الرواية الجديدة» واضاف الناقد ان المفهوم الروائى السائد قد خطت الى الامام خطوات جبارة ! .. فى فرنسا اليوم ينحصر فى أن « المطلب الاساسى فى كتابة الرواية ليس العقدة أو رســـم الشخصيات أو الوصـــف الاجتمـــاعى ، وانما هو خلق التدرج الشـــعرى ... ومفهوم « التـــدرج الشـــعرى » فكرة مثيرة قد تدخل فى الخط المنطقى لتطور الرواية منذ فلوبير الى يومنا هذا » .

● **صدرت للروائى الروسى الاصل الامريكى الجنسية فلاديمير نابوكوف رواية جديدة بعنوان « الهدية » ... ويعدها النقاد اروع أعماله بعد «لوليتا»**